الأَديبْ و المُفَكِّرْ الرَّاحِل
رَمَضان عَبْدِ الرَّحْمن لاوَنْد

عبد الناصر بين الزعامة
الموهوبة والوعي بفن قيادة الأمة

عبد الناصر بين الزعامة الموهوبة والوعي بفن قيادة الأمة

....

الرئيس المصري الراحل محمد أنور السادات هو اليوم موضوع أحاديث ساخنة بلغت بأصحابها مرحلة الروح وتبادل الإتهامات في بعض الأوقات.

لكن فهم المرحلة الساداتية لا يمكن أن يتحقق بحيث يصدر عن دراستها رأي موضوعي ما لم تدرس هذه المرحلة في ظل جذور لها سابقة في عهد الرئيس الأسبق جمال عبد الناس المفجر الحقيقي لثورة 23 تموز.

وعلى ذلك فإنّ تسليط الضوء على السادات وتصرفاته والتعتيم في الوقت نفسه على السلبيات التي ظهرت قبله والتي لعبت دوراً أساسياً في تسهيل خطط السادات وتمهيد الطريق أمامها هو شيء متعارض مع البحث التاريخي السليم.

إنّ الجيل الذي رافق مرحلة السادات هو نفسه الجيل الذي تربى على صورة معينة من التفكير وتشكل بصورة معينة من السلوك والتعامل مع القضايا الوطنية والقومية.

والمؤسف أنّ كل دراساتنا النقدية والتاريخية التي تتناول رجالاً استقلوا في الظاهر في صنع تاريخ بلادهم تحاول أن تحمل هؤلاء الرجال مسؤوليات الفشل كما تنسب إليهم حسنات النجاح دون أن تدخل في معاييرها موقف الجمهور الذي يعارض أو يؤيد تصرفات هؤلاء الرجال.

الأمر الذي لا ريب فيه هو أنّ رجل التاريخ إفراز لواقع ثقافي اجتماعي اقتصادي. أنّ أحداً من رجال التاريخ لا يمكن أن يخرج من فراغ تاريخي. فكل قائد أمة لا بد أن يمثل المرحلة المعاصرة لحياته من تاريخ أمته. فهو حصيلة قيم ومواقف وأنواع من السلوك وطرائق تعامل مع الناس. وفهم معين لأبعاد النهضة والتقدم.

ومن هنا رأيت أن أعقب على الحلقة الثانية من الدراسة التي نشرتها صحيفة القبس للأستاذ مطاع صفدي يومي 24، 25 من الشهر الماضي.

****

تم تحميل هذا الملف من مكتبة الأديب الراحل رمضان عبدالرحمن لاوند (سـيّد المنابر) www.RamadanLawand.com
مع الاحتفاظ بكامل حقوق الطبع و الملكية الفكرية ،لمزيد من المعلومات يرجى مراسلتنا: info@RamadanLawand.com

أول ما لفت نظري هو سلسلة الاعتذارات والتفسيرات التي نسبت وتنسب إلى الرئيس جمال عبد الناصر وتبرر بها النكسات الخطيرة التي ظهرت خلال الأعوام الثمانية عشرة التي قضاها قائد ثورة 23 تموز في حكم مصر وممارسة سياسته القومية الوحدوية..

الأستاذ مطاع صفدي يقول للقراء أنّ جمال عبد الناصر كان يشكو من وحدته في حمل مسؤولية كل ما يجري في الوطن العربي، وشكواه هذه ظهرت بعد أن أصيبت سياسته القومية الوحدوية بنكسات متتابعة كما كان الرئيس جمال عبد الناصر يشكو من أنّ أنصاره ينتمون إليه كزعيم لا إلى القضية التي يعمل من أجلها. ولذلك كانت قيمة كل رأي يتخذ من قبل غيره مرتبطه بالرأي الذي يردده وهو شخصياً فالشرعية ليست في القضية القومية نفسها بل هي في شخص عبد الناصر.

ويضيف الكاتب أنّ الشكوى نفسها كانت تتردد على لسان الزعيم حين يعلن براءته من الأجهزة الرسمية التي هي الناطقة باسمه أمام مصر والوطن العربي الكبير ثم العالم كله.

ويذكر الكاتب أخيراً بأنّ عبد الناصر قد رفض تأسيس حزب يجسد إيمانه والقضية التي يكافح من أجل الإنتصار لها بدعوى أنّه كان حريصاً على تمثيل الأمة كلها لا على تمثيل الأعضاء المنتمين إلى حزبه إذ لا يعقل كما كان يقول أن تنضوي الأمة كلها في صفوف هذا الحزب. الأمر الذي يدعو إلى الدهشة والعجب هو أنّ كاتب الحلقتين المذكورتين قبل قليل لم يحاول تقديم تفسير منطقي لهذه الروايات. وهذا أقل ما يجب أن يلتزم المؤرخ له. لا سيما وأنّ جمال عبد الناصر بقى محتفظاً بزعامته حتى وفاته وببراءته من كل السلبيات ولا سيما سلبيات الهزيمة المنكرة التي نزلت بنظامه وجيشه عام 1976م بدعوى أنّ مسؤولية الهزيمة تقع على مرؤوسيه المدنيين والعسكريين الذين قدمت منهم أكباش المحارق ثم استأنفت المسيرة إنطلاقتها برئاسته رغم الجراح والفضائح التي رافقت تلك الهزيمة أو ظهرت بعدها.

****

ولما كان الواجب يفرض على صاحب كل قلم أن يتسلل إلى ما وراء الوقائع الظاهرة وأن يبحث عن الأسباب العميقة التي تفسرها فإنّ الأستاذ مطاع صفدي إذ لم يستجب لنداء هذا الواجب يكون قد حجب عن المواطن جانباً خطيراً من الحقائق القومية و الوحدوية.

الزعامة نوعان:

الأمر الذي لا يختلف فيه اثنان أنّ جمال عبد الناصر قد وهب مقومات الزعامة. لقد كان يتمتع بموهبة تحريك الجماهير عند أمته. كان يعلم أنّ المواطن العربي يشكو من ضغوط الفقر والمهانة اللذين صنعتهما له كل نظم الحكم السابقة على عصره وأنّه مصاب بعقدة الشعور بالدونية بالنسبة للمستعمرين الأجانب كما يحس بالحقد

العاجز عليهم. فكان رده الطبيعي على هذه الظاهرة هي ترويد شعارات حافلة بالتحديات الموجهة إلى نظم الماضي وإلى الذين يمثلون الاستعمار الغربي وقد نجح نجاحاً منقطع النظير في إرضاء الرغبة الدفينة عند جماهيره حتى الاشباع.

****

لكن الثغرة الخطيرة في ثروته أنّه بقي يتعامل عملياً مع هذه الجماهير بالأجهزة نفسها التي ترمز إلى التخلف والاستهتار والجهل. وبتعبير آخر بقي يتعامل مع الجماهير برجال لم تصقلهم مدرسة ثورية ولم تعدهم عقيدة جديدة ولم تتشكل نفوسهم برؤية تاريخية تكون متجاوبة مع الشعارات التي يرددها هو شخصياً وترددها معه الأجهزة الاعلامية.

هذه الأجهزة الإدارية السياسية هي التي كانت تسرب بطبيعتها إلى القمة نوعية خاصة من الناس تتصف بالنفاق والمهارة في التسلق والضعف في النفوس والتجاهل التام للقيم الجديدة التي تعلن عنها تلك الشعارات.

يضاف إلى ما سبق أنّ الاعلام الرسمي كان يعتمد خطة الإثارة العنيفة التي تجد التجاوب الحتمي عند القاعدة العريضة من الجماهير.

كما ظهرت هذه الثغرة أيضاً حين أعلنت القرارات الاشتراكية التي أممت بموجبها المصادر الكبرى للإنتاج ثم وضعت بإدارة أفراد كل إمتيازهم أنّهم عسكريون سابقون حملوا معهم إلى مكاتبهم كل السلبيات التي كان يتصف بها الجمهور المصري المثقف. فكانت بدعة القطاع العام الذي وكلت إليه مهمة التنمية عنواناً على إفلاسات وفساد في الإدارة وضياع للمسؤوليات دأب المشرفون الرسميون على أحفائها وتزوير الأرقام التي يجب أن تحدد أوضاعها الحقيقية.

خلاصة القول في هذا النوع من الزعامة أنّ الزعيم فيها بسبب من إهماله لخطة إعداد قيادات جديدة يسهر على مراقبة أفرادها، قد عزل نفسه عن جماهيره من الناحية العملية في الوقت الذي بقى بريقه ظاهراً أمام العيون لأنّ ثمرة زعامته لم تواجه في البداية الامتحان الجدي الذي يفضح الخواء الفكري والروحي عند ممثليه أمام الأمة.

****

أما النوع الثاني من الزعامة فهو النوع الذي يتصف به رجال يدركون بعمق بأنّ الزعيم هو رمز وأنّ أنّصاره هم الذين يجب أن يجسدوا هذا الرمز. ولذلك فإنّ صاحب هذا النوع الثاني من الزعامة يبدأ حياته بإعداد عناصر ثورية فيشكلها عقيدةً وسلوكاً وفكراً على الصورة التي تجعل من زعامته حركة مستقبلية فيها صدق المؤمن وجدية العامل وثقافة المدرك لمرحلته التاريخية. والعناصر هذه هي وحدها القادرة على الاحتفاظ بروح الثورة في أثناء حياة الزعيم وبعد موته.

ولما كانت زعامة جمال عبد الناصر من النوع الأول فقد كشفت الثورة عن خوائها السياسي والخلقي والسلوكي في قياداتها الوسيطة وثبت هذا الخواء يوم الهزيمة الكبرى التي حدثت في الخامس من حزيران عام 1967م.

ولا شك أنّ إصرار الرئيس جمال عبد الناصر على إهمال خطة إعداد حزب ينتظم فيه أعضاء ذوي سلوكيات جديدة كان بسبب من سوء تقديره لأهمية الحزب كمدرسة تستمد منها الثورة رجالها، أو من ال اللاشعوري وإصراره على البقاء وحيداً في القمة، فكان هذا الموقف مصدراً للشكوى التي راح يرددها بعد انهيار أحلامه القومية والوحدوية.

****

ومن ثمرات هذا النوع من الزعامة أنّ رجل القمة لا يحمل مسؤولية الفشل بل تكون القيادات الوسيطة بينه وبين جمهور الأمة موضعاً للمحاسبة. هذا مع العلم أنّ الزعماء في دول متقدمة لا يعفون من تحمل المسؤوليات التي تترتب على نظمهم وأجهزتهم الرسمية ولنا فيما أصاب الرئيس نيكسون الأمريكي يوم فضيحة "الووترغيت" البرهان الدامغ على أنّ رجل القمة يتحمل مسؤولية كل سلبية تصدر عن أنصاره ومعاوينه أكان وقوعها بعلمه أو بغير علمه.

أما أنّ الرئيس جمال عبد الناصر كان يشكو من وحدته ويكثر الحديث عن الأنصار والمساعدين والمؤيدين له الذين استقالوا أو رفضوا مشاركته في تحمل المسؤوليات القيادية فهذا شيء طبيعي لأنّ هؤلاء كانوا خليطاً من الناس جمعتهم شخصية الزعيم اللامعة ولم تجتذبهم القضية التي يردد شعاراته حولها.. إنّهم لم يكونوا خريجي مدرسة ثورية بل كانوا أبناء المصادفات والظروف وثمرات أجهزة فاسدة.

والأغرب من هذا كله هو عجز الرئيس عبد الناصر عن تطهير أجهزته الضخمة والشكوى من أنّها قد أصبحت مراكز قوى تدبر المقدرات العامة لحسابها الخاص مع العلم أنّه كان يتمتع بتأييد جماهيري جارف.

****

هذا وقد اكتشف الرئيس جمال عبد الناصر الخطر الناجم عن عدم وجود منظمة حزبية تقوم بدور مدرسة قومية كما جاء في مقالة الأستاذ مطاع صفدي فبادر إلى إنشاء حزبه الخاص بعد انهيار دولة الوحدة الأولى. ومع ذلك فقد فشلت هذه المحاولة لأنّه بطبيعة دوره وبسبب من تلاحق الأحداث وضع مقدرات هذه المنظمة بين أيدي رجال يفتقدون المواصفات المطلوبة لمهمتهم الجديدة، بل كان فساد هذه المنظمة أظهر وأبرز لأنّها نشأت مع قرارات التأميم والمصادرة التي وضعت بين أيديهم مقدرات تحتاج إلى الكثير من قوة الأخلاق ومهارة الأيدي والخبرات الوافية.

وعلى ذلك استعاد الوضع العربي العام حجمه التاريخي الطبيعي بعد الجزر الذي أصاب الناصرية الأولى فكانت الدعوة إلى مؤتمرات القمة بمثابة تكريس للعودة إلى الوراء أي إلى المرحلة التاريخية التي ظهرت فيها جامعة الدول العربية التي كانت ولا تزال شكلاً أفلاطونياً للأطماح القومية والوحدوية التي تستعصي على التنفيذ.

في ضوء ما سبق يمكن أن نقرر الحقيقتين التاليتين:

1) أنّ القضية القومية هي قضية جيل جديد متحرر من عقلية الماضي والعصبيات القطرية التي هي شكل من أشكال العصبيات القبلية ومتشبع في الوقت نفسه بعقيدة تأخذه من أقطاره كلها وملتزم لسلوك متطهر يعلو على أخلاق الارتزاق والانتهازية الرخيصة. ولذلك لا يكفي لتحقيق هذا ترديد شعارات ولمعان زعامة موهوبة.

2) أما الوحدوية فهي ليست جزءاً من عقيدة وليست هي التي تعيد تشكيل الإنسان العربي بل هي حصيلة قرار سياسي يصدر عن الجيل الذي تحدثنا عن مواصفاته في الفقرة السابقة.

****

من هنا لا يفاجئنا ما حدث في المرحلة الساداتية التي نعتبرها استمراراً للمرحلة الناصرية السابقة عليها. والفرق بين المرحلتين أنّ المرحلة الناصرية كانت تجد في زعامة عبد الناصر اللامعة تغطية للثغرات والسلبيات بينما المرحلة الساداتية فقدت هذا الغطاء لأنّها فقدت لمعان الزعامة السابقة عليها ولم يشفع لها ما جرى في حرب 1973م التي رافقتها ونجمت عنها سلبيات ومواقف وإجراءات كشفت عن مضمونها الحقيقي والدوافع الخفية من ورائها. فقد كانت هذه الحرب محاولة لتحريك الأحداث رافقتها ضجة إعلامية ضخمة لتمرير اتفاقية كامب ديفيد.

والجدير بالذكر أنّ اتفاقيات كامب ديفيد ما كان يمكن أن تمرّ لو أنّ الزعامة الأولى وفقت إلى تكوين قيادة ثورية واعية قادرة على الإمساك بزمام الأمور وتوصلت إلى تكوين جمهور يعلو بوعيه القومي بحيث يعلن غضبه وتمرده على سلبيات كامب ديفيد قدر غضبه وتمرده في يناير من عام 1977 على سوء أوضاعه الاقتصادية والاجتماعية.

المطلوب في نهاية المطاف أن تصبح قضية القومية هي قضية التراث الثقافي الديني الذي يمثل روح الأمة من ناحية وأن تظهر الزعامة التي لا تبلغ القمة ما لم تمر عبر قلوب المواطنين فتصبح تجسيداً لأحلامهم وأطماحهم وعقيدتهم الدينية الراسخة في أعماق النفوس.

وبتعبير آخر نقول: لا نريد زعامة تتعبد لها الجماهير بل نريدها مرآة تنعكس عليها القضية التي تتعبد لها الجماهير فتكون القضية فوق الزعيم ولا يكون الزعيم هو القضية بالذات. فمع الأولى يكون أعوان الزعيم أبدالاً له لا أجَراء، ومع الثانية يكون أعوان الزعيم مجرد أجَراء متزلّفين..

****